الصلات الثقافية والفكرية بين تلمسان وقسنطينة

أ. د.عبد العزيز فيلالي
جامعة منتوري، قسنطينة–الجزائر

ملخص

تعد كل من مدينتي تلمسان وقسنطينة من المدن العريقة في الجزائر، دخلهما الاسلام مع طلائع أبي المهاجر دينار، ومنذ ذلك الوقت عرفتا صلات ثقافية وفكرية ومثاقفة صوفية لأن المشرب والمنبع واحد هو الإسلام. ساهم فيها علماء من قسنطينة ومن تلمسان. لعبت البيوتات القسنطينية والتلمسانية دورا مهما في هذه الصلات، ولاسيما منها اسرة لفكون والملاري وابن قنفذ وابن باديس من قسنطينة وأسرة ابن خلوف وابن مرزوق، والمقري والشريف التلمساني من تلمسان في العصر الوسيط. واستمر التواصل بين علماء المدينتين في العهد العثماني بحيث كان أبوعبد الله محمد بن باديس يراسل ابا العباس احمد المقري التلمساني في قضايا تتعلق بمسائل فكرية ولغوية، وتوجد زاوية بمدينة قسنطينة يحمل اسم شيخها "سيدي علي التلمساني". وفي عهد الاحتلال الفرنسي انتقل العالم القدير عبد القادر الجاوي التلمساني الى قسنطينة واستقر بها مدرسا وباعثا للنهضة الفكرية والعلمية والإصلاحية. وكان رائد النهضة في الجزائر الإمام عبد الحميد بن باديس كثير الزيارة لأهل تلمسان التي كانت لها مكانة في وجدانه، ولاسيما تلك التي دشن فيها "دار الحديث" وكتب منها نداء لأهل قسنطينة خاصة والجزائر عامة لمقاطعة الاحتفال بالذكرى المئوية لاحتلال قسنطينة.

الكلمات الدالة : تلمسان، قسنطينة، العصر الوسيط، البيوتات العريقة، التواصل الثقافي.

مقدمة

تتطلب دراسة المدن التركيز على موقعها وبعدها الزماني والجغرافي وما تتضمنه من تنمية بشرية واقتصادية وحضارية في الماضي البعيد والقريب، لان التاريخ هو أساس فهم الحاضر، ولأن المدن لا تنمو من فراغ، وإنما تنمو وتترعرع متأثرة بعوامل بشرية وطبيعية واقتصادية وثقافية، ومتغيرات تؤثر في خصائصها ووظائفها، وان دراسة المدن، تعد من الدراسات، التي تبيّن الاستقرار البشري وتحدد نوع نشاطاته المختلفة، وقد عرفت الجزائر تأسيس المدن وإنشائها في الألفية الأخيرة قبل الميلاد.

وتعد كل من مدينتي قسنطينة وتلمسان، من المدن العريقة في الجزائر، عرفتا الاستقرار البشري، منذ ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد، وصارت الأولى (قسنطينة) عاصمة للدولة النوميدية الشرقية إبتداءا من القرن الرابع قبل الميلاد، وأصبحت الثانية (تلمسان) عاصمة إقليمية لغرب الجزائر في عهد المماليك المحلية، وخضعت كل منهما للاحتلال الروماني والوندالي والبيزنطي ما بين القرنين الثاني والسابع الميلاديين.

عرفت مدينة قسنطينة بثلاثة أسماء هي: كرثن، سرتا، قسطنطينة، وعرفت تلمسان ايضا ثلاثة أسماء هي: بوماريا، إقادير وتلمسان.

دخلت قسنطينة إلى دائرة الإسلام، في منتصف القرن الأول الهجري واحتضن أهلها الإسلام واللغة العربية مبكرا، في عهد أبي المهاجر دينار ما بين سنتي 55هـ/62هـ681-674-، الذي قام بنقل عاصمة ولايته من القيروان الى مدينة "ميلة" في الجزائر سنة 59هـ/677 ومكث بها نحو سنتين كاملتين فتح خلالها مدينتي "تيديس" وقسنطينة ومنهم جميعا وجه البعثات والسرايا والحملات نحو المغرب الأوسط (الجزائر)، وصار يدير من ميلة شؤون الولاية، فتمكن من فتح بلاد الجزائر، بفضل جهود ومساهمة رجال كتامة ماليا واقتصاديا وعسكريا وبنصيب كبير في إتمام فتح المغرب الأوسط (الجزائر) وكان لهم شرف الدفاع عنه ونشره إلى أن أوصلوه إلى تلمسان.[1]

أما مدينة تلسمان فقد دخلتها طلائع أبي المهاجر دينار، ثم عقبة بن نافع في حملته الثانية (683-64/681-62) في العقد الأول من النصف الثاني من القرن الأول الهجري، وهي الفترة الزمنية تقريبا التي دخلت فيها قسنطينة إلى حاضرة الإسلام. وأصبحت تلمسان في عهد موسى بن نصير، في نهاية القرن الأول الهجري تقريبا، مقرا مفضلا لطارق بن زياد، يقيم فيها مع زوجته "أم حكيم" وحاشيته وجنده وهيئة أركانه.[2]

وكان طارق بن زياد يحكم المنطقة الواقعة ما بين تلمسان وطنجة ويفضل الإقامة بالأولى (تلمسان)، ويدير منها شؤون عمالته، وقد استقبل طارق بن زياد في تلمسان مقر حكمه "الكونت يوليان" حاكم مدينة "سبتة" مع ابنتيه، واتفق معه على مشروع فتح الأندلس، وبهذا يكون أهل تلمسان بقيادة العالم الزناتي "الياس المغيلي" التلمساني الذي اعتنق الإسلام مبكرا، قد حملوا لواء الجهاد، الى جانب جيش طارق بن زياد وتحت لوائه، في إتمام فتح الربوع المغربية وبلاد الأندلس[3]، بأموالهم ورجالهم وفلذات أكبادهم.

1 - عبد العزيز فيلالي: مدينة قسنطينة ص 35-33.

2 - ابن عبد الحكم: فتوح افريقية والأندلس، ص72.

3 - شخصية وتراث العلامة عبد الكريم المغيلي، وزارة الشؤون الدينية والأوقاف ص1.

خضعت مدينة قسنطينة في العهد الإسلامي للدولة الأغلبية والفاطمية والزيرية والحمادية والموحدية ثم الدولة الحفصية.
وكذلك خضعت تلمسان في الوقت ذاته، إلى إمارة محلية مغراوية ثم الى الدولة الادريسية وأحيانا للفواطم ومغراوة تحت نفوذ عبد الرحمان الناصر الأموي الأندلسي في القرن 4هـ/10م، ثم المرابطين والموحدين، وصارت عاصمة للدولة الزيانية سنة 633هـ.

1. الصلات الثقافية والفكرية قبل القرن التاسع عشر

إن الحديث عن الصلات الثقافية والفكرية والمثاقفة الصوفية بين تلمسان وقسنطينة والأخذ والعطاء الحضاري، وتحديد درجة استفادة أهل الحاضرتين من بعضهما،تعوزه النصوص المنوغرافية والمصادر الأساسية، بحيث مرت على هذا الجانب مرور الكرام، وما ذكرته من نتف وشذرات جاء محتشما لا يشفي غليل الباحث، وخاصة في العصور الوسطى.
ولكن ظاهرة الصلات الثقافية والفكرية بين قسنطينة وتلمسان، برزت منذ أن إختصت المغرب الدين الإسلامي واللغة العربية، وأصبح يتفاعل مع منظومة العلوم الإسلامية، ولاسيما بعد ان تصدرت هذه العلوم الحواضر الكبيرة، ساهم علماء قسنطينة وتلمسان في نشرها وازدهارها، وتكوين نخبتها عبر الحواضر المغربية والمشرقية والأندلسية.
كانت مدينة قسنطينة معبرا للطلاب والعلماء والحجاج نحو بلاد المشرق، وصارت تلمسان محطة للعلماء والطلاب والمتصوفة القادمين من الأندلس والمغرب الأقصى يؤمون مساجدها ومدارسها وزواياها، فكانت محجا للصوفية والمريدين، للوقوف على ضريح ابي مدين شعيب بالعبادة والتبرك به والدعاء عنده، والالتقاء بالاولياء الصالحين التي تزخر بهم مدينة تلمسان ولبس الخرقة منهم.
فكانت اخبار وكرامات المتصوف "ابي يعزي يلنور" (ت 572هـ/1178) تصل إلى مدينة تلمسان ومدينة قسنطينة ومنها خبر شجرة التين الموجودة ببيته، والتي لا ينقطع منها التين طوال السنة وقد سافر أحد وجهاء قسنطينة من بني علناس رفقة أخيه الحاج ميمون إلى جنوب مكناس حيث يوجد بيت أبي يعزي للتأكد من شجرة التين وكرامة الشيخ فأكلا من تينها.[4] وقد تأثر الخطيب ابن قنفذ بخوارق أبي يعزي وزار قبره سنة 761هـ/1359 م[5]، ويعني هذا أن أهل المدينتين كانوا يأخذون التصوف من مشرب واحد ومن منبع مشترك.

4 - العزفي: دعامة اليقين في زعامة المتقين، احمد التوفيق الرباط 0891هـ. ص 35.

5 - أبو يعزى يلنور: صوفي زاهد من شيوخ أبي مدين الغوث قال عنه ابن قنفذ: "حدّث عن البحر ولا حرج": أنس الفقير ص21.

كما انتشرت في المدينتين الطريقة المدينية، وهي مدرسة أبي مدين شعيب الغوث (ن594/1198م)، التي ضمنها صاحبها الجانب العملي المأخوذ من مدرسة المجاهدات العملية المغربية، وطعّمها بالافكار الصوفية الأندلسية التجريدية، في اتجاهها الباطني ووحدة الوجود، واستمد فكرة تنظيم الطريقة وطقوسها من المتصوف عبد القادر الجيلاني أو الكيلاني (ت 560/1165).[6]

وقد رفض أبو مدين شعيب أسلوب التقشف والزهد السطحي الظاهر، القائم على ترك الملذات في المأكل والملبس والتطيب والعطر، لأن الزهد في نظره فضيلة وفريضة وقربى[7]. وكان يلتزم بالتصوف السني، ولذلك كانت طريقته واسطة بين طريقة الجيلاني القادرية وعدد آخر من الطرق أهمها الطريقة الشاذلية في المغرب الإسلامي.[8]

وقد صارت مدينة تلمسان ما بين القرنين 7 و9هـ/13-15م عاصمة للزهد والتصوف والفقه المالكي، ومنبرا للحضارة الإسلامية، ووسطا للحركة الباطنية وللغليان الروحي، ومشتلة للعلم والمعارف، وخزانا للعلماء والفقهاء والمتصوفة بفضل التواصل الثقافي والفكري والعلمي مع حواضر الغرب الإسلامي.

لعبت البيوتات العريقة في المدينتين (قسنطينة وتلمسان) دورا بالغ الأهمية في النهضة الفكرية والعلمية، وكانت العامل الأساسي في التواصل الفكري والثقافي بين أهل قسنطينة وأهل تلمسان، ولاسيما منها : أسرة لفكون، وأسرة ابن قنفد، واسرة ابن باديس وأسرة ابن عبدون من قسنطينة، وأسرة المرازقة، والمقري والشريف العلوني وابنا الإمام وأسرة ابن النجار والعقباني وغيرها من تلمسان، بحيث كانت تتبادل الزيارات السياحية الروحية والعلمية بين المدينتين والتدريس بهما، وحضور الطقوس الصوفية والمجالس العلمية.

والظاهر ان رموز الفعاليات الدينية والفكرية والعلمية والأدبية والتصوف في المجتمع القسنطيني والتلمساني، كانت محل تقدير وعناية واحترام من قبل السلطة الحفصية والزيانية، وهذا الأسلوب يعد دلالة واضحة للتوازنات التي تريدها السلطة بين أهل المعقول والمنقول والتصوف، وقد استفاد أصحاب علم الباطن من هذا السلوك، فكان لهم الازدهار والانتشار في الحواضر الكبرى للمغرب الأوسط وأريافه.[9]

---

6 - الطاهر بونابي: الحركة الصوفية في المغرب الأوسط خلال القرنين 8 -9هـ، ثورة الجزائر ق1 ص 28.

7 - نفسه.

8 - نفسه.

9 - ابن قنفذ: انس الفقير ص 94 والطاهر بونابي: المرجع السابق ص 84.

فقد قام أبو علي حسن علي بن لفكون القسنطيني (بعد602هـ/1205) وهو الكاتب الكبير، وشاعر وقته، والذي يعد من العلماء البارعين الغزيري الإنتاج في المنظوم والمنثور، خلف ديوانا شعريا مدح فيه ابن عبد المومن، في رحلة سياحية علمية من مسقط رأسه حاضرة قسنطينة، زار خلالها أغلب مدن المغرب الأوسط والأقصى، إلى إن حط رحاله في مراكش عاصمة الموحدين.

كانت الرحلة في طلب العلم، هي ميزة تلك العصور، يقول عنها ابن خلدون: "فالرحلة لابد منها في طلب العلم، لاكتساب الفوائد والكمال، بلقاء المشايخ ومباشرة الرجال"[10].

فبقدر ما كانت الرحلة فحصا للأغوار، ووصفا للأمصار وتقصيا للحقائق وللأحوال والاوضاع الجغرافية والاقتصادية والبشرية والثقافية، فانها أيضا عاملا من عوامل التزود بالعلوم والمعارف، والأخذ من الشيوخ والتتلمذ عليهم.

دوّن الشاعر ابن لفكون، جولته هذه في قصيدة شعرية طويلة ضمنها أحاسيسه تجاه المدن التي زارها، تعد من درر المنظوم ونفائسه. فمكث في تلمسان التي أعجب بها مدة اتصل بعلمائها وأدبائها. فكانت له مناظرات أدبية، وفكرية مع بعضهم، وقد خص حاضرة تلمسان بقوله:

وفي وهران قد أمسيت رهنا لظامي الخصر ذي ردف روي
وأبدت لي تلمســـان قدودا جلبن الشـوق للقلب الخلي[11]
ولما جئت وجدة همت وجدا بمن خنث المعـــاطف معنوي

وكان الفقيه المتحدث أبو محمد عبد العزيز بن عمر بن مخلوف المكني بأبي فارس (ت 681/1287) من مواليد تلمسان، تعلم بها، ثم انتقل إلى مدينة بجاية في رحلة لطلب العلم، فأخذ عن شيوخها من علم المنقول والمعقول، مثل أبي الحسن الحرّاني وأبي العباس المليانى، وتقلد بها قضاء الانكحة، ثم غادر بجاية ليستقر في مدينة قسنطينة، فدرس بها، والتقى بعلمائها وصفه الغبريني بأنه خزانة مالك بن أنس، احتك بالفقهاء وكان مشاورا لهم، وكانت فتواه هي التي يجري بها العمل، تقلد وظيفة القضاء، ومارسها بمدينة قسنطينة، توفي بمدينة الجزائر (ت681/1287).[12]

وهذا دليل على ان علماء المغرب الأوسط، كانوا يتبادلون الزيارات والأفكار ويتناظرون في أمهات الكتب ويقومون بالتدريس ويتقلدون الوظائف، فالمثاقفة بينهم متواصلة بالرغم من أن قسنطينة تقع تحت نفوذ الحفصيين وتلمسان عاصمة بني زيان.

10 - المقدمة ص 816.

11 - الغبريني: عنوان الدراية ص 482.

12 - نفسه ص 19.

وقد زار محمد بن احمد بن مرزوق (781/1380) مدينة قسنطينة عدة مرات الأولى وهو لا يزال شابا لم يتجاوز19 من عمره، في طريقه إلى البقاع المقدسة رفقة والده أبو العباس احمد بن مرزوق (741هـ/1341) فتتلمذ على بعض الفقهاء والصلحاء بالمدينة ولاسيما منهم قاضيها كما أشار هو إلى ذلك في مجموعه.

ورجع إليها أستاذا زائرا درّس بها مجموعة من العلوم منها كتاب البخاري في الحديث، قال عنه ابن قنفذ الخطيب الذي تعلم على يده بعض العلوم : "شيخنا الفقيه توفي بالقاهرة، ودفن بين أبي القاسم وأشهب، له طريق واضح في الحديث، ولقي أعلاما، وأسمعنا حديث البخاري وغيره في مجالس مختلفة، ولمجلسه لياقة وجمال، ولين معاملة، وله شرح جليل على "العمدة" في الحديث والبردة".[13]

وزارها مرة ثالثة مع السلطان أبي الحسن المريني (749-731هـ/1349-1331م)، الذي توقف في مدينة قسنطينة بعد الاستيلاء عليها فأقام ابن مرزوق مع أسرة السلطان المريني بها، ولما كانت وقعة القيروان على أبي الحسن، وثار سكان مدينة قسنطينة على بني مرين سنة 749/1349وعلى وجودهم في المدينة خرج منها ابن مرزوق رفقة أسرة السلطان وتوجهوا الى مدينة بسكرة[14].

وكان الفقيه المتصوف أبي هادي (747هـ/1347م) قد تجرأ على أبي الحسن، وطلب منه العودة من حيث أتى وترك افريقية وقسنطينة وشأنهما، إلاّ أن أبا الحسن رفض طلبه ونصيحته، فكانت الكارثة عليه، بالرغم من أن، السلطان المريني، كان شديد الحرص على التقرب من المتصوفة، وزيارتهم والتبرك بهم ومعانقتهم، كما كان يفعل مع أبي هادي مصباح الصنهاجي، صاحب زاوية بقسنطينة، ويمنح لهم الهدايا ويكتب لهم ظهائر التشريف والتكريم، مثل ما فعل مع الخطيب حسن بن خلف بن باديس (784/1372) وأخيه أبي القاسم شيخ الحرابة.[15]

وكان الخطيب محمد بن مرزوق يجلس مع المتصوف أبي هادي في مدينة قسنطينة، ويبجله ويعتقد فيه يقول عنه: "من كبار اصحابه (السلطان أبوالحسن) الذي كان يعظمهم الشيخ الصالح العارف العابد القانت الفاضل أبو محمد عبد الهادي (أبو هادي) أحد اولياء الله البدلاء، الخاشعين الأتقياء أصحاب كرامات وأحوال ومقامات، أحد المتصوفين الطاهرين، وخاتمة الأولياء المتقين، لم ير مثله أبدا في

13 - التنبكتي: نيل الابتهاج ص 962، ابن قنفذ: كتاب الوفيات ص 373.

14 - ابن مرزوق: المجموع ورقة 83-74.

15 - نفسه ص37-38- التنبكتي : نيل الابتهاج ج2 ص296.

المغرب، وكان والدي أبو العباس (ت741/1340) شديد الاعتقاد فيه"[16]. وكان المتصوف أبو هادي يزور زاوية العباد وينزل بها مع أتباعه ويقيمون بها جميعا مدة من الزمن عاكفين.

وقد شاهد ابن قنفذ في زياراته العديدة إلى العباد تواصل عملية الانقطاع والاعتكاف بهذه الزاوية(زاوية العباد) واستمرار نشاطها الاجتماعي في الإنفاق على المنقطعين والعاكفين.[17]

وكان يرافق أبو الحسن مجلسا من العلماء والفقهاء استقروا بمدينة قسنطينة، وكان من بينهم الخطيب ابن مرزوق، وأبو عبد الله محمد المقري (757/1356) والشريف العلوني التلمساني (771هـ/1369) الذي عين قاضيا على حاضرة قسنطينة، فتواصلوا جميعا مع علماء هذه المدينة بالأخذ والعطاء الفكري ولاسيما منهم القاضي المحدث حسن بن أبي القاسم بن باديس القسنطيني (778هـ/1376م).[18]

وعاد إليها ابن مرزوق الخطيب مرة أخرى مع السلطان أبي عنان في حملته الشهيرة على افريقية سنة (758هـ/1356م) ضمن المجلس العلمي للسلطان، فدخل المدينة بعد حصار طويل، ومكث العلماء التلمسانيون الثلاثة في مدينة قسنطينة، يدرسون المنقول والمعقول ويجلسون مع علمائها ونخبتها.

وكان أبو عنان، قد اختار المقري للكتابة وقاضي العسكر، اثناء حملته على مدينة قسنطينة، التي اتخذ فيها موقفا مشددا، ضد الولي الخطيب حسن بن خلف الله بن باديس السالف الذكر، لأنه رفض الغزو المريني، وكان يحمس المقاتلين ضدهم بخطبه المؤثرة على أهل قسنطينة، فنزع منه ظهير التشريف والتكريم الذي منحه أياه أبو الحسن ونفاه وسجن أخاه شيخ الحرابة.[19]

وقد أشار ابن قنفذ الى المحاورة والمناظرة الفقهية التي دارت بين أبي هادي مصباح سعيد الصنهاجي (748/1347) صاحب زاوية بقسنطينة مع فقهاء تلمسان، ولاسيما وأن أبا هادي ينتمي إلى الطائفة المجارية والتي اخذها عن أبي لقمان المراكشي، قبل ان يتحول إلى الطريقة المدينية عن طريق شيخ زاوية ملارة.[20] يعقوب الملاري (717هـ/1317م) بملارة (فرجيوة) وقسنطينة.

---

16 - المسند ص 651. انس الفقير ص46 وأبو هادي شيخ وولي صالح، استقر في مدينة قسنطينة وأصله من المغرب الأقصى، كانت له منزلة معتبرة، عند سلاطين بن حفص وكذلك السلطان أبو الحسن المريني وبالرغم من مقاومة غزوه لافريقية ونصيحته بالعودة إلى المغرب الأقصى فقد ظل أبو هادي يقول عنه أنه أفضل الملوك وأقربهم إلى الله، المسند ص 864.

17 - انس الفقير ص 601-701.

18 - بونابي المرجع السابق ق1 ص 823.

19 - أبو القاسم الحفناوي: تعريف الخلف ج1 ص382، أبو سالم العياشي: الرحلة ج2 ص 502 خرج مع الأمير أبي الناصر بن الحسن وبعض أولاد السلطان من قسنطينة واتجه إلى بسكرة.المجموع ورقة 84.

20 - أنس الفقير: ص49-15.

أما الفقيه أبو عبد الله محمد بن محمد بن مرزوق الحفيد (ت 842/1438) الذي شرّق وغرّب، فكان له فضل الإقراء من المغرب إلى الحجاز، اشتهر بعلمه وفضله في الأمصار التي زارها، فقد مكث في مدينة قسنطينة نحو ثمانية أشهر مدرسا ومفتيا ومجتهدا خلال سنة 837/1433 أثناء رحلته إلى البقاع المقدسة، تتلمذ عليه طلاب كثيرون وكانوا يتزاحمون على مجلسه، ولاسيما منهم إبراهيم بن فايد بن موسى بن هلال (ت857/1455) الذي اخذ عليه الأصليين والمنطق والمعاني والبيان فضلا عن علم الفقه، والظاهر إن ابن هلال استغل وجود ابن مرزوق في قسنطينة، فلازمه وتقرب منه حتى أخذ عنه غالب العلوم المتداولة عنده، كما اشار التنبكتي.[21]

وأما الفقيه احمد بن يونس بن سعيد القسنطيني، فقد تزود بمؤلفـــاته منها شرحه على البردة.[22]

وفي مجال التصوف فقد انفتحت قسنطينة على زاوية العباد بتلمسان واعتنقت طريقتها عن طريق يعقوب بن عمران البويوسفي (ت717/1317) الذي تتلمذ على الشيخ مسعود بن عريف، أحد أصحاب القطب أبي مدين (594هـ) الذي ينحدر من جبال الشلف، فتأثر به يعقوب الملاري تأثرا كبيرا لدرجة ان الشيخ مسعود ورث له الطريقة المدينية، ونصحه بالعودة الى بلده وبناء زاوية بها تكون منارة للاشعاع الصوفي السني. وكان ذلك في النصف الثاني من القرن 7هـ/13م، وهذا دليل ايضا على التواصل الفكري ما بين متصوفي علماء تلمسان مع علماء وصوفية قسنطينة.

والظاهر أن طريقة أبي مدين شعيب الغوت وطقوسه في مجال التصوف السني، قد عرفها شيوخ مدينة قسنطينة وطلابها وصلحاؤها، ويكون هؤلاء الشيوخ تتلمذوا عليه مباشرة أو عن طريق تلاميذه، في مدينة بجاية، التي أقام فيها أبو مدين فترة طويلة، وأن بجاية لا تبعد كثيرا عن قسنطينة، وتخضع كلتاهما للنفوذ الحفصي.

وأن كتابي "عنوان الدراية" و"أنس الفقير" رصدا لنا العديد من المراسلات والاتصالات بين شيوخ قسنطينة وصلحائها وبين شيوخ بجاية ومتصوفيها[23] وزياراتهم الكثيرة للمدينتين.

حرص يعقوب الملاري على العمل بالكتاب والسنة والاعتناء بالجانب التربوي العملي من التصوف في زاويته، وهي الطريقة التي سلكها أبو مدين الغوث، التي يرى فيها بأن التصوف ليس بالرهبانية ولا بأكل الشعير والنخالة ولا بلبس

21 - نيل الابتهاج ص 54.

22 - نفسه ج1ص45 – السخاوي: التحفة اللطيفة ج2 ص 061.

23 - انظر الغبريني: ص 19-052-152 وابن قنفذ : ص 94-15.

الصوف الخشن والخرقة، وانما يكون بالصبر على الأوامر واليقين والهداية، وهو السلوك الذي التزم به أبو مدين وأسرة ابن مرزوق في تلمسان.[24]

وقد التزم شيخ الزاوية الملارية، بهذه المبادىء والافكار، وبما تحلى به نظام أبي مدين الغوث، حتى أصبح لزاوية ملارة وشيخها تأثير روحي كبير في قسنطينة والمغرب الادنى، فصارت قبلة للمريدين وملاذا يلجؤون إليها وقت الشدائد يحتمون بشيخها وببركاته ودعواته.[25]

وكذلك وضح لنا ابن قنفذ الخطيب المكانة التي كان يتمتع بها والد جده يعقوب وجده يوسف بن يعقوب (764/1360) بسبب الاعتقاد فيهما لأنهما ينتميان الى طريقة أبي مدين الغوث، وارتباط أغلب صوفية قسنطينة وبجاية بها عن طريق التتلمذ أو الأخوة في الطريقة، لأن أبا مدين الغوت مكث نحو 15 سنة ببجاية وهو الأمر الذي جعل العلاقة متينة بين زاوية ملارة بفرجيوة التي تبعد عن قسنطينة بمرحلتين ولكن صاحبها كان يتنقل ما بين ملارة وقسنطينة دائما، لأن ابنته تزوجت من حسن بن قنفذ (ت 750هـ/1350م) والد ابن قنفذ الخطيب (810هـ/1347م) وزاوية العباد بتلمسان حيث كان الشيخ يوسف يعقوب الملاري (ت764/1360) كثير التردد على ضريح ابي مدين، وهو ما جعل الشيخ أبو العباس بن مرزوق (741/1341) القائم على ضريح العباد، يهدي للزاوية الملارية جزءا من عكاز أبي مدين كعربون لهذا الانتماء وللصلة الوثيقة بينهما.[26]

إن مكانة الولي يوسف بن يعقوب الملاري عند سلاطين بني حفص وسلاطين بني زيان جعلت السلطان الحفصي أبو يحي أبو بكر (1343-1318/747-718) يكلفه بمهمة دبلوماسية الى البلاط التلمساني، للقاء السلطان الزياني أبي حمو موسى الأول (1318-1307/718-707) وقد قام بهذه المهمة على أحسن ما يرام، إذ تمكن الشيخ الملاري، من إبرام معاهدة هدنة وسلم وحسن الجوار، بين الدوليتين الجارتين مدتها عشر سنوات[27]، وهذا دليل واضح على العلاقة المتينة بين رجال التصوف ورجال الحكم والسلطة، فتعدى بذلك من التعاون الثقافي والفكري إلى التعاون السياسي والدبلوماسي.

فقد كانت لشيخ زاوية ملارة، علاقات عديدة ومتنوعة مع العلماء والصلحاء والأمراء والسلاطين في قسنطينة وتونس وبجاية وتلمسان، تدل على اتساع دائرة شهرته العلمية والروحية والصوفية وكثرة الاعتقاد فيه.

---

24 - نللي سلامة العامري : الولاية والمجتمع ص47. عبد العزيز فيلالي : دراسات في تاريخ الجزائر ص 621.

25 - ابن قنفذ: الفارسية ص139-491-891.

26 - ابن قنفذ: انس الفقير، ص 35.

27 - نفسه ص53.

وكان الخطيب ابن قنفذ القسنطيني (810هـ/1407م) حفيد الملاري يوسف بن يعقوب (ت 764هـ/1363م) قد تأثر بثقافة جده الصوفية وتتلمذ عليه لأنه كفله بعد وفاة والده، وعلمه منذ نعومة أظفاره علوما شتى، فتعلق الصبي بجده تعلقا شديدا، فأظهر ابن قنفذ نجابة كبيرة في هذا الميدان.

أهلته إلى الرحلة نحو المغرب الأوسط والأقصى، عكس أقرانه الذين كانوا يتوجهون إلى بجاية وتونس والمشرق الإسلامي للاستزادة من العلوم والمعارف، والالتقاء بالأولياء الصالحين، والوقوف عند أضرحة المتوفين منهم، فقصد مدينة تلمسان عاصمة بني زيان والتقى بعلمائها، ووقف عند ضريح وزاوية شيخها أبي مدين بالعباد، وتبرك به، ولاسيما وأن علاقة طيبة روحية تربط بين جده الملاري وأسرة ابن مرزوق بتلمسان القائمين على ضريح أبي مدين الغوث وخطباء مسجد العباد، وقد استغرقت جولته السياحية والعلمية ما يزيد عن ثمانية عشر سنة، التقى خلالها بأقطاب التصوف ولبس الخرقة بيدهم.

فكان كثير التردد على مدينة تلمسان في غدوه ورواحه ورحلاته المتعددة نحو فاس وسلا وأغمات ودكالة، استقر بمدينة تلمسان مدة من الزمن سنة 776/1373م، بسبب المجاعة التي اجتاحت المغرب الإسلامي، اتصل خلالها بالمجالس العلمية والصوفية التي تقام بتلمسان وشارك فيها.[28]

فقد وقف كثيرا أمام ضريح أبي مدين الغوث بعباد تلمسان، يتبرك به، ويتضرع أمام مقامه وفي ذلك يقول: "فلجأت إلى قبر أبي مدين وركعت هناك ما قدر لي ثم قرأت جملة من القرآن، ثم أخذت في التسبيح والتهليل في نفسي، حتى رق قلبي واجتمع خاطري، فاستغفرت اليه وصليت على النبي صلى الله عليه وسلم ثم قلت : يا سيدي أبا مدين نحن أضيافك، وقد نزلنا بجوارك ولنا معك وسيلة عهد وسند متصل قريب غير منفصل، والغرض تسيير الانتقال والحفظ في كل الاحوال".[29]

كما التقى بالمتصوفة التلمسانية الشهيرة بالصالحة بفاس وبتلمسان، فكانت هذه الأخيرة تجالس كبار الفقهاء ومجادلتهم في مسائل فقهية عديدة وكانت تعكف لقراءة القرآن الكريم وعلى زهد وتقشف وعبادة وورع، وكان مجلسها يضم الفقيه العالم محمد المقري والشريف التلمساني، وابن قنفذ الخطيب القسنطيني ويقول عنها هذا الأخير: "أنها كانت تطلعني على آداب دقيقة وتنبهني ما انتفع به".[30]

28 - انس الفقير ص 18، ابن مرزوق: المجموع، ورقة 41-71.

29 - انس الفقير واعز الحقير ص 501.

30 - ابن قنفذ : المصدر السابق ص 501.

وكان ابن قنفذ قد رصد في كتابه الموسوم "أنس الفقير وغز الحقير في رحالات التصوف كأبي مدين وأصحابه"، معتبرا شخصية أبي مدين الدافع الأساسي لوضع هذا الكتاب.[31]

وقد دخلت حلقات الدرس بمدينة قسنطينة، مؤلفات مشرقية وأندلسية وتلمسانية كثيرة، اعتمدها الطلاب في دراستهم وأبحاثهم منها كتب ابن مرزوق الخطيب وحفيده محمد، وكتب ابن أبي حجلة التلمساني وقصائده في الشعر الصوفي، وهو الأمر الذي جعل الثقافة في قسنطينة وتلمسان تعتمد على رافدين هامين، رافد المشرق ورافد الأندلس، فضلا عن الجهاز العلمي والثقافي المحلي في المدينتين، فنتج عن ذلك تكوين كوكبة من الأساتذة والعلماء تميزوا بغزارة التحصيل وعمق التفكير، حتى أصبحوا حجة في الفقه والتفسير وعلى رأسهم أبو اسحاق التنسي، وفي علم أصول الدين والنحو والأدب والتاريخ ومنهم ابن هدية وابن خميس والمقري وابنا الإمام والشريف الحسني من تلمسان، وأبو على بن لفكون وعبد الكريم بن لفكون أيضا والخطيب ابن قنفذ القسنطيني، وأبو على حسن بن باديس 787/1385م وغيرهم كثيرون أصبحوا حجة في الفقه والتفسير والأصول والنحو والأدب والتاريخ وعلوم عقلية أخرى.[32]

غير أن الجدير بالذكر ومن خلال المعطيات السابقة نجد ان علماء تلمسان قد زاروا قسنطينة ودرّسوا بها وتولّوا بعض المناصب فيها مثل الإفتاء والقضاء، بينما علماء قسنطينة أغلب وجهتهم كانت نحو بجاية وتونس والشرق أكثر من وجهتهم نحو الغرب بحكم موقعها بين القطبين الثقافيين تونس وبجاية، فقد رصدت لنا المصادر عينات كثيرة لقسنطينيين استقروا في مدينة بجاية وتونس عاصمة بني حفص،تولوا مناصب عديدة في هذه الحاضرة من قضاء وافتاء وكتابة وتصدروا التدريس والخطابة في مساجدها ومدارسها وكذلك منهم من طاب لهم العيش في الديار المصرية والحجازية فاستقروا بهذه الربوع خلال العصور الوسطى.

لم تتوقف المراسلات بين علماء قسنطينة وعلماء تلمسان، تتضمن المسائل الفقهية والأدبية واللغوية وهي رسائل توجهت لكبار علماء تلمسان مثل أبنا الإمام ومحمد بن مرزوق الحفيد والشريف الحسني وأبو العباس أحمد المقري التلمساني (1041 هـ)في العهد الزياني وغيرهم.

فقد راسل أبو عبد الله محمد بن باديس في القرن 11/17م أبا العباس احمد المقري التلمساني، صاحب كتاب "نفح الطيب"، يستفسره في قضايا لغوية وعند لقائه بالديار المصرية توسع معه في المسائل الفكرية واللغوية، واخذ عنه

31 - ابن قنفذ انس الفقير ص 08-18-28.

32 - عبد الكريم لفكون : منشور الهداية ص 902.

الكثير حسب منشور الهداية.[33]
وظل الاتصال الديني والثقافي والروحي بين تلمسان وقسنطينة متواصلا وقائما عبر العصور المختلفة ففي العهد العثماني كانت الزاوية تقوم بوظائفها الدينية والتعليمية والثقافية بمدينة قسنطينة، تحمل اسم أحد الشيوخ التلمسانيين الذين استقروا بهذه المدينة وهي زاوية الشيخ سيدي علي التلمساني.[34]

2.الصلات الثقافية والفكرية خلال القرنين التاسع عشر والعشرين

أما الصلات الثقافية والعلمية بين تلمسان وقسنطينة خلال القرنين 19 و20، فقد وضحتها بعض الوثائق يمكن أن نستخلص منها بعض الفعاليات الثقافية آنذاك.

عبد القادر المجاوي

ظهرت في مدينة قسنطينة شخصية فذة نادت بالإصلاح وكرست حياتها للتدريس من أصول تلمسانية، استفاد منه أهلها، هذه الشخصية هي: عبد القادر المجاوي 1848-1913م، وهو علم من أعلام الجزائر، كانت له بصمات في الحركة الثقافية وتأثيرات هامة في النهضة والحركة الإصلاحية في الجزائر، ولد بتلمسان عام 1848م، ينتمي الى أسرة تلمسانية عريقة في العلم وممارسة القضاء، فقد كان والده محمد بن عبد الكريم المجاوي، قاضيا بتلمسان لمدة زادت عن خمس وعشرين سنة (25)، فنشأ عبد القادر في هذا البيت الشريف نشأة علمية، ولما عيّن والده قاضيا على طنجة، درس بمدينة تطوان ثم بالقرويين في فاس وفي سنة 1869م عاد إلى وطنه الجزائر واستقر في مدينة قسنطينة ودرّس في مساجدها العلوم الشرعية واللغة العربية في المدرسة الكتانية التي أسسها صالح بأي وجعلتها الإدارة الفرنسية مدرسة رسمية.[35]
فاستفاد منه أهل قسنطينة، بحيث كان معلما بارعا، استحوذ على قلوب تلاميذه بعلمه الغزير ولسانه الفصيح ومنهجه المشوق وعمق ثقافته يعود إليه الفضل في إيقاظ روح الإصلاح والنهضة الفكرية بمدينة قسنطينة فذاعت شهرته العلمية في البلاد، فأقبل عليه طلاب العلم والمعرفة من مختلف مناطق الوطن.
ومن التلاميذ الذين حملوا أفكاره ولواءه والذين سيكون لهم شأن كبير: العالم حمدان الونيسي، الذي انتقل إلى التدريس بالمسجد النبوي بالمدينة المنورة وهو أستاذ الإمام عبد الحميد بن باديس، والمولود بن الموهوب المدرس بالمدرسة الكتانية، وأستاذ المفكر الجزائري مالك بن النبي.

33 - عبد الكريم لفكون : منشور الهداية ص 902.

34 - عبد القادر دحدوح: مدينة قسنطينة محطات تاريخية ومعالم أثرية قسنطينة 0102 ص 59.

35 - عبد العزيز فيلالي : مدينة قسنطينة ص 091.

فكان الشيخ عبد القادر المجاوي مربيا بارعا قدم نصائح وعلوم مفيدة لطلابه، في كتاب ألفه بعنوان "إرشاد المتعلمين" تحدث فيه عن علوم اللسان وعلوم الأديان وعلوم الأبدان، كما قدم عدة كتب أخرى في علوم شتى بلغ عددها ثلاثة عشر كتابا ورسالة، ومقالات عديدة في صحف ذلك الوقت، أشار فيها إلى أن العلوم الحديثة لا تتعارض مع الإيمان، بل تخدمه، وتعز الدين وتدعمه وتنميه وتعتبر أفكاره هذه هي اللبنة الأولى للنهضة الإصلاحية في الجزائر، وخلف عبد القادر المجاوي عددا كبيرا من التلاميذ، حملوا أفكاره وساروا على دربه، واتخذوا من منهجه منارا يهتدون به في جهادهم التربوي والتعليمي، ثم انتقل إلى الجزائر سنة 1898م.

وأصبح مدرسا بمدينة الجزائر بمدرسة الثعالبية العليا المكلفة بتكوين القضاة والمترجمين، ثم وسع نشاطه بداية من سنة 1908م، خارج المدرسة الثعالبية إلى الدعوة والإرشاد، وساهم في إحياء اللغة العربية والعلوم الإسلامية، وبذل جهدا كبيرا في نشر الثقافة العربية الإسلامية وتكوين جيل من المثقفين، صاروا كلهم نواة للوطنية واليقظة القومية، فربطوا حاضر الجزائر بتاريخها المجيد الحافل بالأمجاد والبطولات والانجازات الحضارية، وتشاء الأقدار أن يتوفى عبد القادر المجاوي في قسنطينة التي خدم فيها كثيرا بين أهله وتلاميذه في 26/09/1914م أثناء زيارته لها وكانت له نشاطات مكثفة في هذه الزيارة، ولهذا فقد شككوا في أن موته لم يكن طبيعيا، ويشير تلميذه ابراهيم أطفيش (1886-1965م) بأنه تعرض للإغتيال من طرف المخابرات الفرنسية، بحيث وضعت له ولثلاثة عشر عالما جزائريا السّمّ في القهوة فمات لتوه.[36]

كما شككوا فيما بعد في مقتل الإمام عبد الحميد بن باديس، ونحن لا يمكننا الجزم في ذلك لأن الوثائق تعوزنا، غير أن هذه الأفعال غير بعيدة عن سلوكات الإدارة الفرنسية وأجهزتها المختلفة، وليست غريبة عنها هذه الأفعال للتخلص ممن يضايق وجودها في الجزائر.

وقد أمّ صلاة الجنازة تلميذه الشيخ أحمد الحبيباتي وأبّنه تلميذه الشيخ المولود بن الموهوب مفتي الديار القسنطينية.

وألقى بالمناسبة الإمام الشيخ عبد الحميد بن باديس خطبة مؤثرة أبّن فيها شيخ أستاذه جاء فيها: "أيها الإمام الذي ببزوغ شمسه تمزقت سحب الجهل، وبدت غرة القلم المعين، أنت الذي عانيت في سبيل إصلاحنا أتعابا طويلة... كنت مثالا لحسن الأخلاق وكرم الطبع، ولباب الفضيلة... نبكيك بالدموع، ويبكيك القرطاس والقلم، نبكيك وتبكيك المنابر ودروس العلم والحكم، نبكيك ويبكيك هذا القطر الحزين، الذي غمرته بيض أياديك وغرر فضائلك الحسان،

36 - مولود عويمر : الشيخ المجاوي أستاذ الجماعة مجلة الوعي عدد 3-4 شهر افريل، ماي 1102 ص 941-351.

وقد حان أن أودعك وعزيز على وداعك وداعا يعقبه اللقاء إن شاء الله في جنان الرضوان،أرجع الى ربك راضيا مرضيا مثنيا عليك بكل لسان مهديا لك الفوز بالخلد في أرقى فراديس الجنان".وختم العلامة ابن باديس تأبينه بقصيدة طويلة نقتطع منها ما يلي:

ألا إن هذا الدهر ذو فتكـــــــات وإنا لنـــا في طيه لعظـــــــات
له عصميات في النفوس فلو رمـى بها الراسيـــات صرن منخفضـات
وكم قد رماها فاصطبرنا لرميـــــه الى أن رمى بأعظـــــــم النكبات[37]

ابن باديس وتلمسان

أما الشخصية الثانية من الأسرة الباديسية التي كان لها اتصال بمدينة تلمسان فهي الشيخ الإمام عبد الحميد بن باديس الذي اختار لتلمسان شخصية علمية مرموقة هي الإمام محمد البشير الإبراهيمي، نائبه في جمعية العلماء المسلمين، لغزارة علمه وفصاحة لسانه وسداد رأيه وقوة حجته وشجاعته في مواقفه.

فكان الإمام الإبراهيمي في تلمسان يقوم بحركة واسعة، تفاعل أهل تلمسان مع مشروعه الاجتماعي والثقافي، كما تفاعل أهل قسنطينة بمشروع عبد الحميد بن باديس الذي يتضمن بذور نهضة إصلاحية وتربوية.

لم يتأخر التلمسانيون في السعي لبناء مدرسة حرة تكون منارة علمية وفكرية إسلامية وحصنا للغة العربية في مدينتهم، فأسسوا مدرسة جميلة أطلق عليها اسم "دار الحديث" فكانت هذه المدرسة فريدة من نوعها وليس لها نظير في القطر الجزائري آنذاك، شيدت على نمط معماري هندسي تلمساني أصيل، وهي عبارة عن مجمع تربوي ديني ثقافي.

لعل أحسن احتفال شهدته الجزائر وأروعه هو الاحتفال بفتح هذه المدرسة بتلمسان يوم 22 رجب 1356 الموافق ليوم 27 سبتمبر 1937 فكان الاحتفال جميلا في مظهره، ولطيفا في أسلوبه وبديعا في مناسبته ودقيقا في تنظيمه وفي علو الطبقة التي شاركت فيه، وشاهدت مراسيمه، وتكلمت على منبر المدرسة، من العلماء ورجال السياسة والشعراء وأهل الفكر وصفته جرائد ذلك الوقت وصفا دقيقا، واهتمت به اهتماما كبيرا، وحشد له التلمسانيون، الإمكانيات المادية والمعنوية الضخمة، رغم مضايقات الإدارة الفرنسية واستفزازات المخابرات وتهديدات رجالها.[38]

وقد اختارت الجمعية الدينية لمدينة تلمسان أن تدوم الاحتفالات بهذه المناسبة يومين كاملين، 27 و28 سبتمبر 1937م، وتزامن الاحتفال مع نهاية انعقاد مؤتمر

37 - نفسه.

38 - مجلة الشهاب م 13 ص 151 م14 ص 177.

جمعية العلماء المسلمين في الجزائر العاصمة لتجديد إدارتها، حضره ما يزيد عن 5 آلاف مشارك من المعلمين وأنصار الجمعية ومحبيها، وكان الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، قد بشر المؤتمرين بهذا الحدث الهام، وتحديد يوم التدشين، وأخبرهم بطموح أهل تلمسان لنشر مبادئ الجمعية وأهدافها، والتفاني في خدمة الإسلام واللغة العربية ووجه لهم دعوة باسم سكان مدينة تلمسان، الذين يتشوقون ويتشرفون بأن يكون الافتتاح الرسمي لهذه المدرسة بيد الإمام الشيخ عبد الحميد بن باديس. وقال في هذا الصدد:"لقد حملني إخوانكم التلمسانيون أمانة يجب علي أن أبلغها إليكم، وهي أنهم يسلمون عليكم، ويعاهدونكم على التفاني في خدمة الجمعية ونشر مبادئها، ويبشرونكم بأنهم شيدوا للإسلام والعربية معهدا، لم يكن له نظير، في تاريخ الجزائر الحديث، كما انهم يتشوقون ويتشرفون، أن يكون فتح هذا المعهد لأول مرة بيد علامة الجزائر، وزعيم نهضتها الأستاذ عبد الحميد ابن باديس".[39]

فكان يوم الافتتاح "عرسا علميا" تجلت فيه الأخوة الإسلامية والنخوة العربية حسب تعبير الإبراهيمي.[40] فكان يوما مشهودا اتضحت فيه تطلعات الأهالي للثقافة الإسلامية والعلم فكان فيه روح التعاون والتكافل في ابلغ صوره، واعتبروه من اسعد أيام تلمسان وأبهجها، جاءته الوفود من مختلف مناطق الوطن، فرحة مستبشرة بهذا الإنجاز الذي لم يعهدوه منذ زمن بعيد.[41]

وصل المجلس الإداري لجمعية العلماء بقيادة رئيسها الشيخ الإمام عبد الحميد ابن باديس صبيحة يوم الاثنين 27 سبتمبر 1937، إلى محطة تلمسان للسكك الحديدية، قادما من الجزائر العاصمة وكان في انتظار الوفد الشيخ محمد البشير الإبراهيمي وعلية القوم ووجهاء المدينة ونخبتها، وحشد كبير من أبناء تلمسان والضيوف فاستقبلوا الوفد بالورود والزهور وبالترحيب الحار، تقدم ابن الشيخ الإبراهيمي محمد الطفل، فألقى أمام الإمام عبد الحميد بن باديس كلمة ترحيبية لطيفة، باسم أطفال تلمسان عبر فيها عن شعور أبناء المدينة الطيب والفياض نحو الشيخ الإمام ونحو جمعية العلماء ومجلسها الإداري.[42]

خرج الوفد من المحطة راجلا يتقدمهم الشيخ الإمام عبد الحميد ابن باديس بين صفين طويلين متراصين من الجماهير الغفيرة تعد بآلاف (نحو عشرين ألف) من أبناء تلمسان والضيوف جاءت للترحيب بزعيم النهضة الجزائرية

39 - نفسه م 31 ص 243.

40 - آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي ج 2 ص 03- مجلة الشهاب م 31 ص 243.

41 - مجلة الشهاب م 31 ص 151. م 41 ص 771.

42 - نفسه.

الحديثة وبالعلماء فكان الاستقبال استقبال الزعماء، تأثر ابن باديس له تأثرا عميقا. وكانت الجماهير منظمة تنظيما محكما ومنسقا، وحناجرها تهتف بحياة جمعية العلماء وبرجال العلم، وتكبر وتسبح لله، متحدية بذلك الإدارة الفرنسية وأعوانها، فكانت أصواتهم مؤثرة تصل إلى أعماق الوجدان وكانت النسوة تولولن وتزغردن من وراء الحجاب.[43]

ولما وصل الوفد إلى مدرسة "دار الحديث" تقدم الشيخ البشير الإبراهيمي باسم أهل تلمسان وسكانها وباسم الجمعية الدينية التلمسانية بكلمة وجيزة عبر فيها للإمام عبد الحميد بن باديس عن امتنانهم لحضوره ومشاركته في هذا الحفل، واخبره بان التلمسانيين يرغبون في ان يكون فتح المدرسة بيده، ففتحها الشيخ الإمام ابن باديس باسم الله وباسم الإسلام والعروبة والعلم والفضيلة كما جاء على لسانه.[44]

دخل الشيخ الإمام والوفد المرافق له المدرسة مبتهجا مسرورا فتفقد الأقسام والطوابق، معجبا، بطراز المدرسة وهندسته، وهو النمط التلمساني الأصيل، الذي أقبره الاحتلال أو كاد يقبره ويطمسه.

تقع المدرسة في مكان مجاور للشيخ الإمام البرادعي، صاحب كتاب التهذيب والإمام القدير الشهير محمد بن أحمد بن صعد التلمساني، وبالقرب من دار الباي، ومجاور للثانوية الفرنسية، فكان موقعها إستراتيجيا وهاما حافلا بالطلاب والزوار.[45]

وكانت الجماهير الغفيرة تحيط بالمدرسة وملتفة حولها ورؤوسها مشرئبة، تريد الاستماع إلى كلمة الشيخ الإمام عبد الحميد بن باديس ورؤيته. فأطل عليهم من شرفة المدرسة، وهو فرح مسرور بهذا الصرح العلمي التربوي الديني، ومتأثرا بحفاوة الاستقبال. وخاطبهم بكلمة رقيقة بليغة نابعة من القلب، عبر فيها عن اغتباطه بوجوده في تلمسان وبين أهلها قائلا: "يا أبناء تلمسان ويا أبناء الجزائر، إن العروبة من عهد تبّع، إلى اليوم تحيّيكم، وأن الإسلام من يوم محمد صلى الله عليه وسلم إلى اليوم يحيّيكم، وأن أجيال الجزائر من اليوم، وإلى يوم القيامة، تشكركم وتذكر صنيعكم، يا أبناء تلمسان، كانت عندكم أمانة من تاريخنا المجيد، فأديتموها، فنعم الأمناء أنتم، فجزاكم الله جزاء الأمناء".[46] وهي كلمة صادقة نابعة من القلب تبين ما يشعر به الإمام نحو تلمسان وأبنائها، وهي شهادة صريحة واعتراف واضح من الإمام، بما قدمه أهل المدينة للعروبة والإسلام ماضيا

43 - نفسه م13 ص 153.

44 - نفسه.

45 - احمد طالب الإبراهيمي: مذكرات جزائري ج 1 ص 52 -62.

46 - مجلة الشهاب م 31 ص 253.

وحاضرا.
وكان الإمام يكن معزة خاصة لتلمسان، ومحبة متميزة في وجدانه، وهوى فياض في قلبه، ولهذا كان يزورها في كثير من المناسبات، ويتردد عليها، وكان يشعر بانشراح في صدره ونشاط في فكره وغبطة في قلبه أثناء زيارته لها.
ويتضح ذلك من خلال خطاب ألقاه أمام طلاب الزيتونة وعلمائها في تونس سنة 1937م، جاء فيه. "حقا إن لتونس هوى روحيا بقلبي لا يضارعه ولا يضاهيه، إلا هوى تلمسان، اعرف ذلك من انشراح في الصدر، ونشاط في الفكر، وغبطة في القلب، لا احد مثلهما إلا في ربوعهما (تونس وتلمسان)، ومن نعم الله علي في العهد القريب أن يسر لي التردد بين الخضراء(تونس) والبهجة (تلمسان) مرتين".[47]
وبمناسبة افتتاح مدرسة الحديث بتلمسان كما أسلفنا رافق الأستاذ الشيخ محمد خير الدين الإمام الشيخ عبد الحميد بن باديس الى المنصورة حيث توجد أطلال مسجدها، حيث حرر نداءا يدعو فيه سكان قسنطينة خاصة والأمة الجزائرية على وجه العموم مقاطعة الاحتفال الفرنسي بالذكرى المئوية لاحتلال مدينة قسنطينة وعدم المشاركة فيه، والتزامهم به جاء فيه: "في مثل هذا اليوم منذ قرن مات أجدادكم المجاهدون المدافعون والفرنسيون في ميدان البطولة والشرف، وطويت صفحة من التاريخ على شهادته بالشجاعة والتضحية للغالب والمغلوب. ومضت مائة سنة كانت كافية لنسيان تلك المأساة وضمد تلك الجروح وتقريب السكان المجاورين من بعض، لكن قوما من الأنانيين (الفرنسيين) الذين يأبون إلا أن يكونوا سادة متفوقين وأن يشعروا المسلمين بسلطة الغالبين (المعمرين) على المغلوبين (الجزائريين) هؤلاء القوم أرادوا في هذه الأيام أن يقيموا احتفالات عسكرية بمدخل مدينة قسنطينة تثير العواطف، وتمس كرامة الأحياء منا والأموات..."
"يحتفلون ومطالب الشعب الجزائري معرقلة ومعطلة وحقوقه مهملة وسوط القوانين الاستثنائية نازلة على ظهره كل يوم"
ولهذا فقد اجتمعت (14) أربعة عشر جمعية إسلامية من جمعيات قسنطينة يوم 18 سبتمبر÷1937م في نادي الاتحاد، وكانت كلها مستنكرة لهذه الاحتفالات عازمة على مقاطعتها، وكما قام المؤتمر الإسلامي باحتجاجه لهذه الاحتفالات وقدم عريضته للوالي العام، وقدم مكتب لجنة قسنطينة إلى رئيس بلدية قسنطينة.
وفعلت نفس الشيء الجمعيات الإسلامية القسنطينية، فقامت بواجبها، "وإني كقسنطيني أقوم بنشر هذا النداء، فما بقي منكم إلا أن تقوموا أنتم بواجبكم وهو مقاطعة هذه الاحتفالات" (حرر بالمنصورة حوز تلمسان يوم 28/09/1937).[48]

47 - نفسه م 31 ص 653.

48 - نداء عبد الحميد بن باديس لسكان قسنطينة منشور يوم 7391/90/82.

ولما قرأ الشيخ الإمام النداء على رفقائه بالمنصورة، جعل أحد تلامذته يثبط عزيمته ويحذره مغبة نشره، فغضب الإمام عبد الحميد بن باديس وقال: "يا أبنائي إنكم تعلمون أني لم اطلب أي شيء لنفسي، ولكني اليوم أطلب لنفسي شيئا واحدا وهو أن تسمحوا لي أن أكون أول ضحية في سبيل الجزائر عندما يحين الوقت للتضحية في سبيلها" ثم التفت الى ضيفه ورفيقه الأستاذ إبراهيم الكتاني الذي حضر مؤتمر المعلمين وافتتاح دار الحديث، قادما من المغرب الأقصى، قائلا له: "هنيئا لكم إنكم تجدون في المغرب السبيل للتضحية في سبيل بلادكم، أما نحن في الجزائر فإننا نحترق على التضحية في سبيلها ولا نجد للتضحية سبيلا".[49]

وكان اليوم الأول من الاحتفال مخصصا للخطب والدروس بحيث ارتجل الإمام محمد البشير الإبراهيمي خطبة ساحرة، ثم قام الإمام الشيخ عبد الحميد بن باديس بإلقاء درس في الحديث النبوي الشريف.

وفي الليل تحدث الشيخ مبارك الميلي والشيخ العربي التبسي في درسين هامين الأول عن الحديث والثاني عن التفسير وختم الجلسة الشاعر محمد العيد آل خليفة بإنشاد قصيدة كلها عيون وغرر.[50]

وقد ظل أهل تلمسان على العهد يواكبون، نشاط جمعية العلماء المسلمين وفي غيرها من المدارس والنوادي، ويساهمون في توعية مجتمعهم، بنخبهم وحضور التظاهرات الثقافية التي تديرها جمعية العلماء، في تلمسان وفي الحواضر الجزائرية الأخرى، فقد شاركوا آهل قسنطينة بجوارحهم وبحضورهم بوفد هام يزيد عدده عن أربعين تلمسانيا، في الاحتفال الذي دام أربعة أيام، أقامته جمعية العلماء المسلمين بمدينة قسنطينة سنة 1938م، بمناسبة ختم الشيخ عبد الحميد بن باديس، تفسير القرآن الكريم بمسجد سيدي الأخضر، والذي استغرق فيه نحو "25 سنة" كاملة.

وتقدم الوفد التلمساني يوم التكريم بتقديم هدية عميقة في معناها ثمينة في جوهرها للأستاذ المفسر، وهي عبارة عن محفظة كتب عربية مصنوعة من الجلد الجيد، سُرَّ بها الشيخ الإمام عبد الحميد بن باديس سرورا كبيرا، وصارت هذه المحفظة رفيقة دربه في تجواله وترحاله، ولا تزال المحفظة مع جملة من الآثار المادية والفكرية التي تركها الشيخ الإمام في بيت أخيه عبد الحق بن باديس بقسنطينة إلى اليوم مع مجموعة من الكتب والوثائق، محفوظة في منزله.[51]

---

49 - نفسه.

50 - الشهاب م 31 ص 353.

51 - نفسه م 41 ص 481.

الخاتمة

تعد كل من مدينتي قسنطينة وتلمسان، من المدن العريقة في الجزائر عرفتا الاستقرار البشري منذ آلاف السنين قبل الميلاد، خضعت كل منها للاحتلال الروماني والوندالي والبيزنطي ودخلتا دائرة الإسلام مع طلائع ابي المهاجر دينار وعقبة بن نافع. ومنذ ذلك الوقت عرفت كل منهما صلات ثقافية وفكرية، ومثاقفة صوفية خلال العصر الوسيط.ساهم فيها علماء من قسنطينة ومن تلمسان. ولاسيما منها البيوتات العريقة في الدين والعلم والتصوف. وكانت الزيارات متبادلة بين العلماء لكلتا المدينتين، لأن قسنطينة تعد محطة ومعبرا للطلاب والعلماء والحجاج، وأن تلمسان كانت مشتلة للعلم والتصوف.

فقد حط رحاله بمدينة قسنطينة الشيخ المتحدث ابو محمد عبد العزيز بن مخلوف التلمساني، فدرس بها علم المعقول والمنقول كما زار محمد بن احمد بن مرزوق الخطيب رفقة والده والسلطان ابي الحسن وابي عنان عدة مرات، وانتقل اليها العالم محمد المقري والشريف التلمساني الذي عين قاضيا فيها.

وكان رجال التصوف بقسنطينة، على اتصال دائم مع رجال التصوف بتلمسان ولاسيما منهم الشيخ يعقوب وابنه يوسف بن يعقوب الملاري صاحب زاوية ملارة وحفيدهما ابن قنفذ الخطيب، لانتمائهم إلى الطريقة المدنية وتوجد زاوية بمدينة قسنطينة تحمل اسم شيخها مبدي علي التلمساني.

واستمر التواصل بين علماء قسنطينة وعلماء تلمسان حتى في العهد العثماني بحيث كان ابوعبد الله محمد بن باديس يراسل ابا العباس احمد المقري التلمساني في قضايا فكرية ولغوية.

أما في عهد الاحتلال الفرنسي، انتقل العالم القدير عبد القادر المجاوي التلمساني إلى مدينة قسنطينة واستقر بها مدرسا وباعثا لبذور النهضة الفكرية والعلمية والإصلاحية. وكان رائد النهضة الإصلاحية والعلمية الإمام عبد الحميد بن باديس، كثير الزيارة لتلمسان،التي كانت لها مكانة في نفسه ووجدانه، ولاسيما تلك التي دشن فيها "دار الحديث". وكتب فيها نداء لأهل قسنطينة خاصة وأهل الجزائر عامة لمقاطعة الاحتفالات بالذكرى المئوية لاحتلال قسنطينة.

المراجع

1 - ابن خلدون، عبد الرحمان (1991). المقدمة. تحقيق حجر عاصي، منشورات كلية الهلال، مطبعة المعارف، بيروت.

2 - ابن قنفذ، القسنطيني (1986). الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية. تقديم محمد الشاذلي النيفر وعبد المجيد التركي، دار التونسية للنشر، تونس.

3 - ابن قنفذ، القسنطيني (1971). الوفيات. تحقيق عادل نويهض، الكتاب التجاري، بيروت.
4 - ابن قنفذ، القسنطيني (1965). انس الفقير واعز الحقير، نشره وصححه محمد الفاسي وادولف فور، منشورات المركز الجامعي، الرباط.
5 - ابن عبد الحكم (1964). فتوح افريقية والأندلس. دار الكتاب اللبناني، بيروت.
6 - ابن مرزوق، الخطيب. المجموع. مخطوط الخزانة العامة بالرباط تحت رقم 20.
7 - التنبكتي، ابوالعباس احمد بابا (2004). نيل الابتهاج بتطريز الديباج. تحقيق على عمر، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة.
8 - السخاوي، شمس الدين (1979). التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة. تحقيق اسعد طرابزوني، مطبعة دار الثقافة، القاهرة.
9 - لفكون عبد الكريم (1987). منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية. تحقيق أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي، بيروت.
10 - ابو العباس (1980). دعامة اليقين في زعامة المتقين. تحقيق احمد التوفيق، مطبعة المعرف، الرباط.
11 - الغبريني، ابو العباس (1981). عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية. تحقيق رابح بونار، الشركة الوطنية للطاعة والنشر، الجزائر.
12 - الإبراهيمي، احمد طالب (2007). مذكرات جزائري. دار القصبة للنشر، الجزائر.
13 - الإبراهيمي، احمد طالب (1997). آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي. دار الغرب الإسلامي، بيروت.
14 - بونابي، الطاهر (2008). الحركة الصوفية في المغرب الأوسط خلال القرنين 8 و9 هـ/15-14م. دكتوراه باشراف الدكتور عبد العزيز فيلالي، كلية العلوم الإنسانية، جامعة الجزائر.
15 - الحفناوي، ابو القاسم (1985). تعريف الخلف برجال السلف. مؤسسة الرسالة، تونس.
16 - دحدوح، عبد القادر(2010). مدينة قسنطينة : محطات ومعالم تاريخية بقسنطينة. قسنطينة.
17 - العامري، نللي سلامة (2001). الولاية والمجتمع. تقديم الدكتور هشام جعيط، جامعة منوبة، تونس.
18 - فيلالي، عبد العزيز(2007). مدينة قسنطينة تاريخ- معالم -حضارة. دار الهدى، الجزائر.

19 - فيلالي، عبد العزيز(2002). تلمسان في العهد الزياني. موفم للنشر والتوزيع، الجزائر.
20 - فيلالي، عبد العزيز(2012). دراسات في تاريخ الجزائر والغرب الإسلامي. دار الهدى الجزائر.
21 - عويمر، مولود (2011). الشيخ المجاوي أستاذ الجماعة. مجلة الوعي عدد 4-3 افريل- ماي، الجزائر.